قلعة الحصن

من قلم جناب موسيو لبولدوني

كنت قد قرأت في نشرة اعمال الجمعية العلمية في الاسكندرية عدد ٧٣ لسنة ٧٣ و٧٤ جملة تاريخية لجناب موسيو بلانش قنصل دولة فرانسا في طرابلس وبما اني رابتها جزيلة الفائدة استاذنته ترجمتها فاجاب فترجمتها ببعض تصرف

من يقصد حمص وحماه من مدينة طرابلس يسير محاذيًا ساحل البحر في نحو شرق الشمال الشرقي في سفح جبل تربل فيصل بعد مسير ثلاث ساعات الى مصب نهر البارد حيث يبتدئ سهل عكار فياخذ في الابتعاد عن الشاطئ دون ان يعرّج في مسيره عن جهة الشمال الشرقي وعلى يمينه جبال عكار المنفصلة عن جبل مكمل تجري نهر البارد وهي منتهى سلسلة جبال لبنان . ويخترق سهل عكار كثيرٌ من مجاري المياه اعظمها النهر الكبير الحمي (الشوروس) عند الاقدمين على ان ملاحي طرابلس وجزيرة ارواد ما فتئوا يدعونه (الافرون) وهو احد الانهر الثلاث الكبيرة في سورية وهي العاصي والليطاني والنهر الكبير ومخرجها جميعًا من اعالي منحدرات لبنان الشمالية على مقربة من بعضها ومجرى النهر الكبير من الشرق الى الغرب فيكون حدًّا لبلاد عكار . ومنه على بعد اربع ساعات الجسر الجديد حيثما يبتدئ قضاء الشعرة وضفته اليسرى محفوفة بالوهاد الخطرة والشابا الوعرة يعسر السير فيها على ان ضفته اليمنى اي قضاء الشعرة سهل متسع في مسافة اربع ساعات تتخلله الآكم الغضّة وينفصل لبنان عن جبل النصيرية ويشبه وهدةً عريضةً تلتصق في سلسلة الاكم المتاخمة حدود سورية والممتدّة من جبل كرمل الى جبل عمان . وهناك تتفرع الطريق اثنتين ما يسار منها الى حمص وما تؤدي الى حماه . ومنها على ثلاث ساعات آكمة في آخر الشعرة يتزل منها باحدور قصير الى سهل البقيعة وهو على شكل بيضي ارتفاعاته على غير استواء ونسبة على انه في الشرق والشمال الشرقي من حدوده لايكون علوها عظيمًا وفي جنوبيه او الجنوب الشرقي منه الاكمة الناهية جبل عكار وعلى شماله او الشمال الشرقي منحدرات جبل النصيرية الشامخة ويجتاز سهل البقيعة النهر الكبير متعرجًا ويصب فيه كثير من مجاري المياه فيتوغل في وادي خالد حيث يصبح عينًا كبيرة تنفجر من منحدرات جبل عكار الشمالية والشرقية

فاذا ما ولج المسافر سهل البقيعة يرى عن يساره اثر قلعة الحصن على قنة جبل عالٍ على الضفة اليمنى من النهر الكبير حيثما تبتدئ سلسلة جبل النصيرية وهي عريقة بالقدم الدهور بناؤها ثخينٌ متسع يشهد بسالف قدرتها وهي من اعظم ما قدر الاقدمون على تشييده فلا جرم ان يتبادر

الى الراي من اوّل وهلة انها شيدت لضرورة حربية كما يستدل ايضًا من آثار حصون قديمة على اربع اوخمس ساعات منها كالمرقب وصافيتا وحصن سليمان وقلعة الحواني وغيرها واكثرها من اسس طبقة في البناء وزد على ذلك ان هيئة البلاد من طرابلس الى سهل البقيعة تدلُّ على عظم اهميتها في الحروب السالفة وذلك ان الجبال المتاخمة سورية حاجزٌ بين الشرق والغرب تصدُّ الجيوش الآتية من ضفة الذيل لشن الغارة على الفرات او الآتية من الفرات على مصر فكان يقتضي ان تدور في لحف تلك الجبال فتاتي البحر عن طريق الشام وبلاد الخليل ومرج ابن عامر. اوان تجتاز المشاق بخرق مضايقها الثلاث وهي وادي الحازمية لكنهُ صعب مرتقاهُ مستحيل عبورهُ ويجري نهري العاصي والكبير والمرجّح ان جيوش المصريين كانوا يؤثرون السير في مجرى النهر الكبير لسهولته واستقامة طرقهِ وموافقتها لسير جنودهم ومهماتهم وكانت تلك البلاد حتى سهل عكار تحت سلطانهم فكان من اعظم اغراضهم المحافظة على مجرى النهر الكبير وربما دافعوا عنهُ مرارًا وحصنوا خططهُ من قديم الزمان وليس لذلك احسن من مركز قلعة الحصن فانها تكشف سهل البقيعة وفم الوادي من جهة الشمرة ويؤيد تخميننا هذه انهُ لم يزل في جوارها آثار تدلُّ على انها كانت معسكرًا حصينًا في فتنة محدرات شاحتة يسهل ايصال المدد اليها فيمكن حمايتها من الذب عن مجرى النهر الكبير

وتملك هذه القلعة الصليبيون وشادوا فيها بيعةً من شكل (الفوتيق) لم تزل قائمةً وعليها كتابة باللاتينية باحرف القرن الثاني عشر بعد المسيح وسبقهم الرومانيون اليها ولهم فيها آثار ظاهرة على ان التاريخ عقيم بالافادة عن اصلها وزمن انشائها وارتأى الجغرافي (ريتر) انها حصن (مريام) المعروف من عهد الاسكندر واعتبارها لا ينتصر على مركزها بل لاشياء اخرى لا يحسن تركها فنقول. ان للروم ديرًا للقديس جيورجيوس على نحو ساعة الى الشمال الغربي من القلعة وقد اشتهر هذا الدير بكثرة زوارهِ فان الناس تقصدهُ سنويًا منذ افتتح العرب هذه البلاد واثر (ريتر) انهُ كان يدعى ابا القدس ونقل عن ابن الواقدي ان اميرًا مسيحيًا طرابلسيًا من معاصري عمر والي خالد سار في محفلٍ عظيم يزورهُ في عيدهِ ويزوج ابنة فلانية جماعة من عرب الشام وكانت الامارة يومئذٍ لابي عبيدة فاحاطوا بهِ فادبر الامير ومن معهُ وكانوا ١٠ الفًا فتاثرهم العرب حتى نهر طرابلس ووقعت ابنة الامير اسيرة في ايديهم وصارت من نساء زعيمهم. وزكّى (كيبون) ما قيل عن زيارة الدير الّا انهُ دعاهُ ايلاس وجعلهُ فيما بين بعلبك والشام مما لا يؤثر التصديق بهِ نظرًا الى مركز الدير الحقيقي ورواية ريتر هي الصحيحة وكيفما كان الامر فقدمية الزيارات مثبتة وربما اخذها النصارى عن الوثنيين. وعلى مقربةٍ من الدير ينبوع ماء صافٍ يسميهِ العرب الفوّار وهو من العيون الدورية العظيمة ينفجر من صخرٍ منقوب كالكهف وفيهِ حوض ماء عمقهُ ستة او سبعة امتار وعرضهُ

نحو متربن فينقطع ماؤهُ في الاوقات العادية كانهُ ليس بنبوعًا . ثم يسمع لهُ كل ثلاثة او اربعة ايام دويٌّ هائل وينفجر الماء من اطراف الجبل بشدَّة لا مزيد عليها ويصبُّ في السهل على محيط اربعين مترًا ويستمرُّ سيلانهُ ساعات متواصلة ثم ينقطع . وحكي ان في سنة ١٨٢٢ استقرَّ الماء في الكهف عامًا كاملاً اثر الزلزلة العظيمة التي خربت مدينة حلب فانزل ذلك بالاهالي ضررًا جسيمًا لاعتمادهم على سيلان الماء في حراثة الارضين فكانت مواسمهم تختلف على نحو اختلاف انجارهِ في اوقاتهِ العادية وتدعى المياه الخارجة منهُ الجدول السبتي ومصبهُ في نهر العروس الذي يصب في النهر الكبير . وعرفهُ الرومانيون قديمًا واحطَّ تيطس عليهِ في رجوعهِ من اورشليم ليرتاح من مشاق السفر ووجد في سهل البقيعة مرعى خصبًا لخيلهِ ولا يبعد انهُ اقام في قلعة الحصن نفسها وكان معهُ المؤرخ يوسيفوس فذكر اليهوع وترجم اسمهُ الى اللغة اللاتينية بالجدول السبتي او حافظ بالاحرى على اصل مسمَّاهُ السامي بنوع يوناني واثرانهُ يسيل مرة في الاسبوع فطابق كلامهُ واقعة الحال اذ اراد بالسبتي معنى الدوري او الاسبوعي ولم يعن ان الجدول يحافظ على يوم السبت . وحكى افليبوس عنهُ ايضًا فقال يسيل في الاسبوع الاَّ يوم السبت واما يوسيفوس فجعل سيلانهُ مرةً في السبَّة فقط ولا ريب انهما يشيران هنا الى الماء الفوَّار الذي نحن بصددهِ فانهما كانا في جيل واحد ومن المقربين الى قسطاسيوس قيصر وتيطس فلا يستغرب انهما كانا يعرفان احدهما الآخر وربما عرف افليبوس عن الجدول السبتي من كتاب يوسيفوس الذي اشتهرهُ قبل كتاب افليبوس بخمس سنوات او سمع ذلك منهُ شفاهًا او من تيطس نفسهِ او احد قواد الجيش الذين صحبوهُ الى اليهودية وعلى كل حال فالمؤرخ يوسيفوس احرى بالتصديق لتحبصهِ الاخبار واعتمادهِ فيها على البحث والتدقيق بخلاف الآخر فان اعتمادهُ في الحوادث على النقل فضلاً عن تصديقهِ الخوارق والمستحيلات . ثم وقع اختلاف في بعض الترجمات عن نصوص لاتينية منها ما وافق افليبوس في ترجمتهِ وما عاكسهُ فحمل ذلك بعض الكتبة المتاخرين على اغتنام الفرصة للتنديد بخرافات اليهود وبانهم يعتقدون بان المياه الدورية تحافظ على السبت كما ينسبون ذلك الى اكثر الامور الطبيعية . والمرجح ان سكان فلسطين لم يكونوا يعرفون وجود تلك العين وهي بعيدة عن بلادهم بل انما كانت منذ القدم عند الشعوب المجاورة موضوع عقائد وخرافات ولم تزل عند بعضهم حتى اليوم اما اليهود فهم بمعزل عن هذه الخرافة وهي صادرة بالاكثر عن المؤرخ افليبوس فيما يصدقهُ ويميل اليهِ من المستحيلات ستاتي البقية

قيل ان اسكندر ذا القرنين ادخل الخلافة الى قومهِ لكيلا تمسكهم الاعداء من لحاهم . ولمَّا تنصَّب بطرس الاكبر على تخت الروسية ضرب على خلاقي مملكتهِ ضريبة بدعوى ان الخلاقة من افعال البرابرة